قضايا سرد "الآخر" في النّصوص الرّوائية ذات المرجعيّة التّاريخية

- قراءة في ضوء الدّراسات الثّقافية والمقارنة المعاصرة -

Issues of narrating of the "other" in the Historical novels - Reading in the light of contemporary cultural and comparative studies -

د.هجيرة بوسكّين *

جامعة يحي فارس المدية (الجزائر)

hadjira.bouzekkine@yahoo.fr

تاريخ الإرسال: 26-01-2022	تاريخ التقييم: 29- 04 -2022	تاريخ القبول: 15- 06- 2022

الملخّص

يعتبر سرد الآخر، بما يثيره من قضايا في الفكر العربي عامّة والدّراسات الثقافيةوالمقارنة خاصّة، من أهمّ الإشكالات الفكريّة والفلسفيّة التي تناولتها النّصوص الرّوائية العربية والجزائرية التي ارتبطت ارتباطا وثيقا بالمرجعيّة التّاريخيّة التي تقرّ بوجود " الآخر" كحقيقة واقعيّة عبر العصور والأزمنة التّاريخية.

لقد كان لحضور" الآخر" ضمن الخطابات الرّوائية التي أضمرت الكثير من الأنساق الثّقافية، دور في التّأسيس لوعي إبداعي جديد قام باستثمار العناصر الثّقافية التي أنتجها المجتمع العربي، فخلق بذلك أبعادا جديدة للكتابة الرّوائية نأت بها عن الطّرح الكلاسيكي، فقد اتّجه الرّوائيون المعاصرون إلى حقل جديد من الكتابة السّردية امتزج فيه المعطى الثّقافي المعاصر بالمرجعيّة التاريخية. ساهم هذا التّوجه الجديد في خلق سرديات ثقافية عربية وجزائرية تتحاور فيها الأصوات داخل العالم الرّوائي الذي يظلّ عالما خاضعا لسلطة النّسق وهيمنة المتخيّل مهما حمل من مرجعيّة تاريخيّة.

كلمات مفتاحية: قضايا سرد الآخر ; الرّواية ; المرجعية التاريخية ; الدّراسات الثّقافية ; الدّراسات المقارنة.

Abstract:

Narrating of the "Other," with the issues it raises in Arab thought in general, and cultural and comparative studies in particular, is one of the most important

intellectual and philosophical problems addressed by Arab and Algerian novelist texts that are closely related to the historical reference.

The presence of the “other” in the narrative discourses that contained many cultural patterns had a role in establishing a new creative awareness that invested the cultural elements produced by Arab society and the historical reference, Accordingly, contemporary novelists have turned to a new field of narrative writing in which contemporary cultural produced has been mixed with historical reference. This new trend has contributed to creating Arab and Algerian cultural narratives.

Keywords: Issues of narrating of the "other"; novel; historical reference; comparative studies.

*المؤلف المراسل:

1.مقدّمة:

مع ظهور آداب "ما بعد الكولونيالية"، برزت على ساحة الدّرس الثّقافي والمقارن العربي مجموعة من القضايا التي ارتبطت بمفهوم **"الآخر"** كالاستشراق والمثاقفة والتعدّدية الثقافية وهجنة الهويّات وصراع الأقليّات وقضايا التّنوع والاختلاف والهيمنة الثّقافية، وغيرها من المواضيع والقضايا التي شكّلت مجال اهتمام خاص وواسع من طرف الفلاسفة والأنثروبولوجيين وعلماء النّفس.

لقد شكّلت علاقة "الأنا" ب"الآخر" قضية جدلية تناولها الفلاسفة والكتاب والرّوائيون المعاصرون وأبرزوا أهميتها، لما تقتضيه من انفتاح على قضايا التّفاهم والحوار والتبادل والتّواصل والاختلاف التي تعد من أبرز اهتمامات الدّراسات المقارنة المعاصرة، وهي قضايا ترتبط بالفاعلية الإنسانية في تجلياتها الاجتماعية والسياسية والنفسية والثقافية التي عكفت النّصوص السّردية المعاصرة على طرحها ومناقشتها، ذلك أن العلاقة الناجمة عن التقاء وتفاعل ذاتين أو ثقافتين مختلفتين لا تخلو من المآزق والإشكالات والالتباسات والغموض.

إنّ الآخر في الرّواية هو تمثيل رمزي لصورة مختلفة عن "الأنا"، وهذا الاختلاف يقرّ به التّاريخ الذي جمع الأنا العربي بالآخر الغربي عبر العصور المتعاقبة وصولاً إلى المرحلة المعاصرة التي أصبح فيها التّواصل مع الآخر ضرورة حتمية يفرضها بروز عدّة مسائل على الساحة الإنسانية العالمية منها: انتشار الحروب وفتكها بالحضارات العريقة وإضرارها بالمحيط الإنساني والبيئي العالمي جرّاء الانتهاكات البشرية غير المسبوقة ضدّ الطبيعة والإنسان.

وعليه، تنبثق فكرة البحث في مسألة "الآخرية" والإشكالات والقضايا التي يطرحها **سرد"الآخر"**في الرّوايات ذات المرجعية التّاريخية من كونها تجسد حجم الصّراع الفكري والدّيني والسّياسي والثّقافي بين الإنسان والإنسان، بين **الأنا والآخر**، الذي نقل لنا التاريخ القديم، الحديث والمعاصر محطات هامّة وبارزة منه، قبل أن يضع الإنسان خطواته الأولى على سلّم الارتقاء الإنساني ولا يزال هذا الصّراع مستمراً إلى أجل لا يمكن تصوّره.

إنّ هذا الصّراع بين الأنا والآخر يبدأ من تموضع كلا الطّرفين في حيّزي الآخرية فلا يكون بينهما صراع ما لم يكن كلّ منهما آخرا بالنّسبة للآخر على المستويين الفردي والجماعي، ولعلّ الاهتمام الحالي المتعاظم على المستوى العالمي في المجال الثّقافي بصفة عامة والأدبي الرّوائي بصفة خاصة بالآخر يرجع إلى صحوة جماعية متأخرة لمراجعة التاريخ الإنساني الذي يجمع الأنا العربي بالآخر الغربي، والحفر في زواياه الخفية لاكتشاف ما اختبأ وراء الصّور النمطية المزيفة حول الأنا أو الآخر من حقائق تاريخية ستغيّر أنماط سرد الآخر في الكتابة الروائية التي تستند إلى التاريخ كمرجعية أساسية لبناء النّص الروائي.

بناءً على ما سبق يحاول هذا المقال الإجابة عن الإشكالية الآتية: ما هي أهم القضايا والإشكالات التي يثيرها سرد "الآخر" المختلف في النّصوص الرّوائية ذات المرجعية التّاريخية ؟ وهل استطاع الرّوائي العربي باعتماده على المرجعية التّاريخية الفكاك من قيود الصّور والكتابة النّمطية عن الآخر،أم أنّه ظلّ أسير سلطة الأنساق الثّقافية والإيديولوجيا التي يفرضها السّياق الاجتماعي والثّقافي المعاصر للكاتب والنّص معا ؟

للإجابة عن هذه الإشكالية ننطلق في دراستنا هذه من الفرضية الآتية: إنّ سرد الآخر- أيّا كان هذا الآخر- في الرّوايات ذات المرجعية التّاريخية هو **سرد فنّي تمثيليٌ** تحكمه

قواعد السّرد التي تمنح للرّوائي مطلق الحرية في خلق شخوص تعبّر في كثير من الأحيان عن رؤى الكاتب العربي لهذا الآخر الذي يجمعه به إرث من العلاقات التي امتازت بالصّراع وسوء التّفاهم النّاجم عن سوء تلقيه وإدراكه له، شأنه شأن كثير من العرب باعتباره جزءاً من المنظومة الفكرية والثّقافية لمجتمعِه، وعليه فإنّ دخول عنصر **التّاريخ** في نواة السّرد الرّوائي كمرجعية لا يمكن أن يغيّر المفاهيم ويصحّح نظرتنا إلى الآخر بشكل كامل، ولكنّه رغم ذلك سيجعل الكتابة الرّوائية تمتاز بصبغة عالمية تتداخل فيها الأصوات والهويات الثّقافية، فيخلق الكاتب بذلك نصّا سردياً يمزج بين فنّية المتخيّل وواقعية التّاريخ وراهنيّة المعطى الثّقافي والاجتماعي المعاصر، نصٌ ثقافي يركّز على التّكامل الإنساني بين **الأنا والآخر** بدل أن يغذّي الاعتقاد الرّاسخ بمدى التّغاير والتّضاد الذي جعل تاريخ البشرية يكتظ بالحروب والإبادات الفكرية والدّموية التي انطلقت من مبدأ التّغاير العرقي أو القومي أو الدّيني أو المذهبي أو السياسي أو الاجتماعي الثقافي، أو غير ذلك.

من هنا يحاول هذا المقال تحليل أهم القضايا الفكرية والفنّية والثّقافية التي تتعلّق بسرد الآخر في النّصوص الرّوائية ذات المرجعيّة التّاريخيّة انطلاقا من رؤية الدّراسات الثّقافية والمقارنة لهذه الإشكالية وكذا تقديم أمثلة عن بعض النّماذج الرّوائية الجزائرية المعاصرة التي عبّرت عن هذه الإشكالية وحاولت معالجتها.

2. إشكاليّة التّمثيل السّردي للآخر في النّصوص الرّوائية ذات المرجعية التّاريخية وعلاقتها بالدّرس المقارن:

يتحوّل "**الآخر**" داخل عوالم الكتابة الرّوائية إلى موضوع ويصبح سرده أو الحديث عنه عملاً أدبياً وفعلاً لغوياً إبداعياً، والعمل الأدبي الإبداعي لا يتحرّى الموضوعية بقدر ما يهتم بتقديم رؤية صاحبه لفكرة معينة أو واقع معين بأسلوب مؤثر يحتل فيه التخييل مركز الصّدارة.

ولعلّ لجوء الرّوائي إلى التّاريخ في **سرده للآخر** المختلف هو محاولة لجعل السّرد يقولُ ما لم يقله التّاريخ، أو جعل التاريخ يكذِّب ما نقلته لنا الصورة عن الآخر من أوهام على مرِّ السنين، لأن **الصورة الأدبيّة** ليست استنساخاً للواقع أو مطابقة له ولا ينبغي لها أن تكون أمينة أو صادقة أو واقعية، «فدراسة صور الشّعوب من مبدأ البحث عن "الزيف

التام" أو "الحقيقة التامة" هو بحث غير مُجدٍ، لأن الحقيقة تكمن في دقّة الصّورة والنّجاح في رسمها»[1] فالبحث عن مطابقة الصّورة للواقع لا أهمية له، إنّما الهام هو البحث عن جوهر الصّورة المكوّنة لشعب من طرف شعب آخر، فلو فرضنا أن الصّورة يمكن أن تطابق الواقع لما كانت هناك حاجة لدراستها ما دامت تطابق الواقع « ندرس الصّورة لأنّها غير أمينة خياليّة. فالصّورة الأمينة غير موجودة وغير هامّة. إنّ للصورة قوّة محرّفة. وتحديد تلك القوة هو الغرض من هذا النّوع من الدراسة... إنّ إيجاد شيء من الحقيقة في الصّورة، يعني الاعتراف للأدباء ببعض الموضوعية التي ليست لهم. وهم لم يبحثوا عنها »[2].

إنّ دراسة الصّورة في **الأدب المقارن** تنفي وجوب مطابقتها للواقع، ولكنّها لا تنفي صلتها بالواقع نفياً مطلقاً، ومعنى ذلك أنّ الصّورة ليست خالية تماماً من أي عنصر حقيقي ولا صلة لها البتّة بواقع شعب من الشّعوب، لأن الخيال ينطلق من واقع ما، وكلّ صورة خيالية لا بدّ لها من بعض الواقعية، فالعقل البشري يلتقط أشياءً من واقعه المعيش أو المسموع، ثم يحلّل ذلك الواقع إلى جزئيات، تلك الجزئيات يستطيع إعادة بنائها وتركيبها من خلال نظرة معيّنة، وبذلك يأتي شيءً جديدا غير مطابق للواقع وغير منفصل عنه تماماً، ولذلك كلّه توهمنا الصورة بواقعيتها وتجعلنا نصدق كل ما جاء بها من تفاصيل قد تكون مضافة.

وعليه، فالصّورة إذاً تمثيل يعتمد على معلومات شبه ثابتة ذات طابع عام ومعقول وتعبر عن شيء من الواقع الملموس، ...إنها تصوّر فردي أو جماعي تدخل فيه عوامل ثقافية وشعورية، موضوعية وذاتية. من هنا لا تطابق الصّورة الواقع الحقيقي، وليست شديدة القرب منه، ولكنّها ليست مختلفة عنه تمام الاختلاف، إنّها رؤية معقولة لشعب عند شعب آخر، تعتمد على عوامل عقلية وأخرى مادية، موضوعية وذاتية. وإذا كان الاعتماد على الصّور في سرد الآخر المختلف أمراً مشروعاً من النّاحية الأدبية في عالم الكتابة الرّوائية، إلاّ أنه يتناقض مع فلسفة الرّواية التّاريخية التي ترمي إلى قراءة واقعية للمواضيع والعلاقات التي تربط بين البشر انطلاقاً من رؤى التّاريخ.

يذهب **جورج لوكاتش** إلى أن دلالة الرّواية لا تكون إلاّ بالكشف عن جوهر ومضمون الفعل الرذوائي، وهذا أمر يتجاوز الواقع المخادع أو غير الحقيقي الذي تمدُّنا به

الصّور، وهو ما ولّد عند **(لوكاتش)** مجموعة من المفاهيم المتعدّدة كالكليّة، والواقعية والمعرفة والتّقدّم، وهي مفاهيم تحدّث عنها الفيلسوف **هيجل** في حديثه المعمّق والمستفيض عن التّاريخ البشري، إذ يرى في الرّواية « أنها تمثِّلُ البحث عن الوحدة المفقودة» [3].

إنّ الفن بوصفه رؤية للوجود والحياة « يتنافى وجوده مع قبولِ النثري والعادي والمبتذل في العالم الخارجي» [4] كما أن مبدأ الكليّة المقصودة ترتبط بالتّصوّر **الهيجلي** لحركة التاريخ وهي ما يقابل عنده **"كليّة المواضيع"** التي تقوم على فكرة علاقات البشر فيما بينهم على اختلافهم وعلاقاتهم بالمؤسسات والطبيعة، وبهذا المفهوم يصرّ **لوكاتش** على قراءة التّاريخ قراءة جادة تبعِدُ القضايا الهامشية والنّاقصة، فعلى الرّوائي أن يختبر الموضوعات الجديدة، ذات العلاقة الصّادقة مع حياة البشر، وهذا حتّى تتحوّل الرّواية إلى مرآة تكشف التّاريخ وتفسِّرُه، وهو ما دفع لوسيان غولدمان فيما بعد إلى تطوير مبدأ **"الكليّة"** إلى مفهوم **"الواقعية"** التي تكشف عن أزمة الذّات وهي في صلب تناقضاتها وصراعها الاجتماعي مع الآخر المختلف ثقافياً اجتماعياً، دينياً وفكرياً.

من هنا تكشف لنا «الواقعية كشفاً أميناً يخبِرُ عن الجهة التي يذهب إليها مشيراً في اللّحظة عينها إلى قوى اجتماعية متداعية، وإلى قوى أخرى تشُدُ التاريخ إلى شاطئ الخلاص. [5]»

إنّ هذه الرؤية تجعل الرّواية خطاباً معرفياً فكرياً وثقافيّا تجتمع فيه أشكال الصّراع في أبعد تصوّراته، وأثناء ربط الواقعية بالتاريخ، تكشف الرّواية عن منظور آخر لصيق بالكتابة الرّوائية يتّصل اتصالاً وثيقاً بسردِ الآخر وحضوره في النّص الرّوائي هو منظور **"المعرفة الرّوائية"**، فهل تقول الرّواية الحقيقة عن الآخر؟ أم أن الجانب الفني المتخيّل يحول دون ذلك؟ ومن أين يستمد الكاتب معرفته الرّوائية؟.

تغوص المعرفة الرّوائية في الحياة الخاصة التي تشتق من المجرَّد والمشخّص فضاءً حيوياً، يدخل اللّعبة الرّوائية في حيّز المادية والتاريخ، حيث تنشأ علاقة متكافئة بين الحقيقة والمعرفة الرّوائية إلى الحد الذي تصبح فيه معرفة معيارية، وهذا انطلاقاً من أن الرّواية لا تقول الحقيقة بالقدر الذي تُبرِزُ فيه وجهة نظر خاصة عن معنى الحقيقة، فالحقيقة إشكالية والباحث عنها هو أيضاً إشكالي [6] .

إنّ الرّواية في بعدها المعرفي هي صورة الحياة كما تمثّلها قدرات التّخييل، ومدارك التّصوّرات، لهذا « فإنها تنقادُ إلى استعارة شكلها من تقطيع متميّز ومخصوص لأبعادِ الواقع ومستوياته المختلفة» [7]، ونقصد بذلك أن الواقع الذي تحايثه الرّواية هو شكل متميّز بخصوصية فلسفية لصورة واقع آخر تغطيه عوالم من الضلال والأوهام، فالرواية «لا تنتج إلاّ بتراكيبِ التفكير الجمالي بالحياة». [8]

وعليه، لا تقول الرّواية الحقيقة إلاّ داخل دائرة الزّمن لذلك هي بحاجة إلى التّاريخ الذي يبقيها داخل دائرة الزمن ويمدها بالواقعية التي تحتاجها لتكمل بناءها الفنّي، والزمن في الرواية وإن كان زمناً تاريخياً لا يمدها بالحقيقة، بل يسِمها بسمة الواقعية التي يفتقدها المتخيّل، لذلك لا ينبغي أن ننتظر من العمل الرّوائي مهما أُثقِلَ بوثائق التّاريخ وأحداثه وشخصياته أن يقولَ الحقيقة عن الآخر المختلف، لأن التّاريخ عندما يندمج مع المتخيّل سيحول ذلك دون الوصول إلى الحقيقة والموضوعية.

ينسُجُ التاريخُ مع المتخيّل علاقات كبيرة مرئية وغير مرئية، تحولُ دون وجودِ تاريخ صافٍ وعلميٍ بالمعنى الموضوعي وبشكل إطلاقي « فالتاريخ كثيراً ما يمحو فواصله بين الحقيقة الموضوعية والحقيقة المتخيّلة، وقد يحتاج في بحثه المستميت عن الحقيقة إلى ترميمات لا يقرّبُها منه إلاّ المتخيّل الذي يرتكزُ على القرابة مع التاريخ» [9]

يرتبط المتخيّل بالتاريخ في الرّواية عن طريق الزّمن، ذلك أن مضامين العمل السّردي الرّوائي المشتغِل على مساحات التاريخ، تحاول استرجاع التّاريخ المغيَّب ضمن سياقات المعرفة الإيديولوجية، وهذا « بالاستفادة من التاريخ البعيد المتواري كوقائع أو كأسباب ونتائج، والذي يتخايل في الذاكرة كرؤى ورغبات وكأمجاد قديمة... » [10]، لذلك تعدّ الكتابة من هذا المنطلق مغامرة زمنية، ففي الإبداع الرّوائي يصبحُ الزمن المقياس الوحيد الذي يسمح لنا بالانتقال من الخطاب إلى التخيّل، فعن طريق أحداث الزمن تتكون المنظومة السردية وتتداخل مجموعة القيم الحضارية المرتبطة بحركية الكتابة وخصوصية القراءة، إذ تتفاعل هذه العناصر مع بعضها لتشكّل دينامية الخطاب السّردي القائم على فلسفة الزمن.

وهكذا يهشِّمُ المتخيّل في النّص الرّوائي كل حقيقة قد يقدّمها التاريخ أو يقرُّ بها الزمن وينفي كل موضوعية يرمي إليها الكاتب، وكل معرفة قد يقدّمها التّاريخ عن الآخر ستتهشّم أمام جدار المتخيّل. وهذا يضع الكاتب أمام إشكالية كبيرة: فمن أيّ مصدر يستقي إذاً معرفته عن الآخر؟ وكيف يتخلّص من سلطة وهيمنة القيود الفنيّة للمتخيّل التي تحول دون الوصول إلى الحقيقة؟ .

في العمل الرّوائي الإبداعي وإن كان يستمد مادته من التّاريخ، يحتل المتخيّل مركز الصّدارة لأن الرّواية لا تنقُل لنا العالم بل تؤوِّلُه وتعيد بناءه بلغة السّرد، وعليه فإن المادة السّردية المنجزة حول الآخر ستمتاز بالهشاشة والنّسبيّة لأنها تنشأ من خلال العلاقة النشيطة والخلاقة مع الحدث التّاريخي أو الزّمن التّاريخي أو الشّخصية التّاريخية وتعطيها امتداداتها الكبيرة في الزّمن، ولكنّها في الوقت نفسه تخرجُ التّاريخ من وثوقيته وقصديته، ذلك أن«المتخيّل في الرواية لا يعطي قيمة كبيرة للحقيقة التّاريخية كحقيقة مطلقة، ولكن كاستعارة لذاتٍ أو فكرةٍ أو موضوعٍ أو شيءٍ قد تسيّد وانتفَى وصار جزءاً من الذاكرة الجمعية، ووظيفته في النص الروائي هي أقرب إلى الإيهام والاحتمال البعيد منها إلى الحقيقة الثابتة. لهذا فاختبار هذه الحقيقة ومساءلتها خارج السّرد يعدُّ ضرباً من الاستحالة، فلا حقيقة في النص الإبداعي إلاّ الحقيقة المركّبة التي يقيمها فعل الكتابة من خلال شبكة معقّدة من العلاقات الفنية مآلها الأول والأخير النص الأدبي في تعدديته وتأويله » [11].

من هنا لا تتوقف الرّواية عند هذه الحقيقة المرجعية باستمرار وبشكل لا متناهٍ، فهي تعيها من حيث هي تاريخٌ يقول حدثاً ما منجز من قبل ذات معينة، مخصوصة بهويتها المتفرّدة، يترتب عن هذا الحدث أوضاعٌ مرئية وغير مرئية، ولكنها لا تنسى تكوينها البِنيويّ الخاص كرواية وكفضاء مستقل« فهي عالم ينبني جوهرياً على فعل الحريّة ولا تهمّه الحقيقة الموضوعية كحقيقة لا يدخلها الزيف. لهذا تقوم الصيرورة السّردية داخل النص بمحو الحدود والفواصل وتؤسس لعالم ينتفي فيه التاريخ كحقيقة، وتحيلُ الرواية بذلك إلى ذاتها على الرغم من حفاظها على بعض علامات التاريخ كإحالات إيهامية في الأغلب الأعم تقرِّبُ القارئ من عالم هو يعرفه أو يحسه، أي التّاريخ الذي لم يَعُد تاريخاً بالمعنى العلمي للكلمة، جرّاء فعل الكتابة والسّرد المتملّص من الحقائق.» [12]

إنّ تمتّع الرّوائي بهذا القدر من الحريّة التي يفرضها المتخيّل يجعله يقول ما يشاء عن الآخر، وهنا تتدخل النوازع الذاتية وتطغى الإيديولوجيا على الكتابة الرّوائية، فيمكن أن يصبح الآخر ملاكاً، كما قد يصير شيطاناً إذا أراد الرّوائي ذلك. يمكن أن يكون عبقرياً أو متخلّفاً بربرياً.

وهذا يدفعنا إلى القول: إنّ حضور الآخر في العمل الرّوائي هو **تمثيل سردي** وليس **سرداً واقعياً** يجسِّد **حقيقة الآخر**، ولن يصلنا هذا "الآخر" كقرّاء إلاّ من خلال الصّورة التي أراد الكاتب أن يضعه فيها، وكل تاريخ يكتبُ عنه، أو يكون جزءاً منه في الرّواية هو تاريخ سردي يطغى عليه المتخيّل عندما يعيدُ كتابته وتأويله برؤى الكاتب.

وعليه فإنّ كل بحث عن حقيقة الآخر يطال سماته وفكره، ثقافته وحضارته، دينه ومعتقداته، هو بحث غير مُجدٍ في العمل الإبداعي الرّوائي لأنه لا يتعدّى **التّمثيل الرّمزي للمتخيّل**، ولا يتجاوز أُطُر الصّورة التي يضعه الكاتب فيها، والتي لا تعبّرُ بطبيعة الحال عن حقيقة هذا الآخر: « بديهي أن صورة الآخر ليست هي الآخر، صورة الآخر بناءٌ في الخيال، الصورة ليست الواقع حتّى وإن كان الصراع حولها من رهانات الواقع، ولأنها كذلك فهي اختراع.» [13]

يتمظهر الآخر في الأعمال الرّوائية والأدبية بشكل عام بكونه تمثيلاً أو تمثُّلاً **"Représentation"** لذلك فإنّ صورته تقوم عناصرها الحاضرة في الفكر مقام خليط من العواطف والأفكار المسبقة، لذلك لا يمكننا اعتبار الصورة التي نشكّلها عن الآخر هي الآخر.

بناءً على ما تقدّم يمكننا القول: إن دراسة سرد "الآخر"من خلال المعرفة التي تقدّمها الصّورة في الدّراسات المقارنة هو بحث **أنثروبولوجي، إيديولوجي وتاريخي**، كما أن أغلب الصّور التي نشكّلها عنه أو يشكّلها الآخر عنّا هي صور نمطيّة تكرّست في الموروث الثّقافي والفكري العربي والغربي منذ قرون، ساهمت في تكوينها **ظروف تاريخية** امتازت بالاستعمار والحروب والماضي الذي امتاز بالصراع والعلاقات الصّدامية، وظروف ومعطيات اجتماعية وسياسية وثقافيّة ساهمت في النّهاية في اتساع الهوة بين الأنا والآخر الأجنبي المختلف، وجعلت عملية سرده إشكالية حادّة ومُربكة ومستمرة في الأعمال الرّوائية التاريخية العربية لغياب مصدر موثوق وموضوعي يقدّم معرفة حقيقية عن الآخر الأجنبي.

لذلك يظل سرد الآخر المختلف في الأعمال الروائية التي تستندُ إلى التاريخ وتتخذه مادة للبناء والحكي داخل عالمها الرّوائي، سرداً تتجاذبه أطراف ثلاثة تبعدُه جميعها عن الوصول إلى الحقيقة هي: **وهم الصورة**، **وفنية المتخيّل وواقعية التاريخ المفترضة**، لأن المنظومة السردية هي كيان يخضع لعمليات **الهدم والبناء** بفعل اللّغة، وكل شيء داخل هذا الكيان خاضع للتحوّل والتغيّر على يد الكاتب والقارئ على حدٍّ سواء.

والمتتبّع لتاريخ الرّواية العربية منذ ميلادها يجد توافقاً تاماً بين تاريخ الرّواية العربيّة وتاريخ البحث عن الهويّة العربيّة، فقد تدرّجت "الأنا" روائياً في بحثها عن هويتها تاريخياً ابتداءً من بحثها عن ذاتها مقابل الآخر كما ظهر في ستينات وسبعينات القرن الماضي، أو من خلال بحثها عن ذاتها مقابل **الأنا المنعكسة** كما ظهر في روايات مرحلة الثمانينات والتسعينات من القرن الماضي، أو بحثها عن ذاتها مقابل **الأنا التاريخية** كما ظهر في روايات نهاية القرن الماضي وبداية القرن الحالي.

وإذا كانت "الأنا" هي محور الاهتمام والبحث والكتابة في الرواية العربيّة فهذا لا يلغي حتماً أهمية حضور الآخر وسرده في مضامين الرّواية العربية، خاصة تلك التي تستند إلى التّاريخ، ذلك أن مقابلة الأنا مع الآخر المختلف روائياً ضمن حقب زمنية وتاريخية متعاقبة ومختلفة سيمكّننا من إدراك التّطور والنّضج الذي حدث في وعي الأنا وإدراكها لذاتها من خلال مواجهتها بالآخر المختلف.

3. سرد الآخر في الخطاب الرّوائي التّاريخي وقضايا الهويّة والتّعدّدية الثّقافية:

يقوم قانون الاختلاف بين البشر على مبدأ التّعارف بينهم وقبول بعضهم بعضا، لأنّه لا يمكن للذّات أن تعيَ وجودها إلاّ من خلال وعيها الكامل بوجود الآخر، ومحاولة قبوله لا على مبدأ العداوة، بل على مبدأ النّديّة. ذلك أنّ الأنا لا تسافر « في اتّجاه كينونتها العميقة، إلاّ بقدر ما تسافر في اتّجاه الآخر وكينونته العميقة، ففي الآخر تجد الذّات حضورها الأكمل، الأنا هي، على نحو مفارق، اللاّ أنا، والهويّة، في هذا المنظور، هي -كمثل الحب- تخلق باستمرار»[14].

ولمّا كان الآخر مختلفا عن الأنا، والأنا أنانيّة بطبيعتها تحاول على الدّوام فرض نفسها وسيطرتها عليه، فإنّها تشعر بأنّ هذا الآخر المختلف يهدّد وجودها وكينونتها. وشعورها بالتّهديد يقودها إلى «الأحاديّة وإلى علاقة شرطيّة ذات ردّ فعل ميكانيكي ضدّ الآخر، وبالتّالي فالحوار يكشف الاستنفار والاستفزاز من الآخر، والرّفض التّلقائي لأيّ أفكار للتّوحّد مع الآخر. وهكذا، بينما الآخر – ونتيجة أنّه يشعر بالدّرجة نفسها من التّهديد- فلديه قدرة أكبر لإبداء سواء الخصومة والعداء، أو القبول والمشاركة»[15].

وبالعودة إلى واقع الدّرس المقارن العربي، نجد أنّ ثنائيّة " الأنا " و" الآخر" قد تمّت قراءتها وتحليلها في ضوء ثنائيّة أخرى في أغلب الدّراسات المقارنة التي تناولت العلاقة بين الأنا العربي والآخر الغربي، هذه الثنائية هي ثنائيّة **" الشّرق" و" الغرب"** التي تعدّ تجلّيا من تجلّيات صراع الأنا والآخر الذي يكشف عن علاقة تاريخيّة قديمة وعريقة تمتدّ عبر الزّمن إلى عهود قديمة، وقد تراوحت العلاقة بينهما بين الحوار والسّلم تارة، والصّدام والحرب تارة أخرى. إنّ التقاء الأنا بالآخر، الشرق بالغرب سردياً ضمن مكوّنات وهيكلة العمل الرّوائي يثير مسألة الهويّة الثّقافية والحضارية، خاصة إذا تعلّق الأمر بالنّصوص الرّوائية التّاريخية، ذلك أنه لا يمكن فصل صيرورة موضوع الهويّة الحضارية والثّقافية للأنا أو الآخر عن سياق مجمل التّحوّلات التّاريخية الكبرى التي شهدتها الأمة العربية الإسلامية وكانت مسرحاً لها.

وعليه ترتبط مسألة الهويّة الثّقافية بصدمة الحداثة كما ترتبط الهوية الحضارية تاريخياً بالاصطدام الكبير بالغرب، فالهوية الثقافية « تتحدّد مؤقتاً بأنّها ما تصنعه صدمة الحداثة على المحك. »[16]، وتتعلّق وفق هذا التصوّر بما يسمّى «الاستعداد الانفتاحي المميّز للثقافة الغربية، بل هو مشروعها حديثاً في إطار ما أسماه **صموئيل هنتنغتون "التحديث"** الذي تكون نتيجته، لا حضارة عامة بأيّ ذي مضمون، ولا يكون نتيجته غربنة المجتمعات غير الغربية.» [17]، وهو المفهوم ذاته الذي اقترحه **"جاك برك"** عن الإسلام أيضاً « فالمطلوب من الإسلام أن يصالح ذاته، مع تخطيه لنفسه، الحداثة والأصالة، الغرب والشرق. » [18]

ونعني بذلك أنّ أزمة الذات مع الآخر مستمرة وأنه يشكّلُ مصدر تهديد لها، ومن هنا فقد أصبحت مهدّدة مرّتين: من ناحية المحافظة على أصالتها (الجمود)، أو قابلية

الاستعمار والتغيّر لأنّ جمودها يعني التخلف عن الآخر وربما الموت، وكل ذلك يخلق عندها أزمة هويّة إذا لم تهتدي إلى القرار الصحيح.

وإذا أردنا قراءة مسألة الهوية قراءة تاريخية، نجد أن سعي الآخر الغربي إلى طمس الهوية الثقافية والدينية للذّات العربية ارتبط غالباً بالنزعة الاستعمارية مع اختلاف في كيفية ممارسة القوّة، إذ لم تعد قوّة من أعلى أو من فوق (كولونياليّة)، إنّما هي "كولونيالية" جديدة متمثّلة في الهوية الثقافية الحضارية التي تشكّل نماذج التماسك والتفكك، والصراع في عالم ما بعد الحرب الباردة.

لقد خلق هذا التّصادم بين الأنا والآخر تاريخياً وعلى مستوى الهوية: ذاتاً مهزومة لها الجاهزية والقابلية للاستعمار، وآخرًا معتدّاً بنفسه يسعى لفرض نموذجه الغربي ثقافياً وسياسياً وفكرياً ودينياً عن طريق القوة التي تبُرِّرُها أنساق الاستعمار وخطاباته الإيديولوجية.

وهكذا يمكن القول إن موضوع الهوية هو السؤال الملتهب والمقلق الذي انبثق بقوة بسبب الالتقاء الصادم بالآخر**(الغرب)** في المجال العربي وفي مجال الثقافة والكتابة الأدبية والروائية غداة الصدمة الاستعمارية « ولا يشكل طرح السؤال الذي يتناول تحديد الهوية ترَفاً فكرياً، أو لعبة فلسفية، أوحلاً لأزمة نفسية أو دخولاً في أزمة نفسية. »[19] إنّه في الواقع أمر جادٌ يتعلّق بالصّراع المصيري نفسه، بل ويقرِّرُ الصّراع المصيري نفسه. ومن ثمّ يقرّرُ هذا السؤال، وما سيقود إليه من إجابات، معركة الصّراع ضد الاستعمار.

كشف سرد الآخر في النّصوص الرّوائية العربية التّاريخية عن أنساق ثقافية وتاريخية وعن تعدّدية ثقافية تندرج كلّها، أو على الأقل معظمها، ضمن ما يسمى الخطاب الاستعماري أو الكولونيالي، وطرح لنا إشكالات ذات طبيعة "**هُوَوِية**"، حيث نقلت هذه النّصوص للقارئ "أناً" تعيش حالة من الضياع، أناً مهزوزة ترزح تحت حمل تاريخ من الانهزامات الحضارية والفكرية وحتّى العسكرية على يد الآخر.

وبرغم أنّ الشّخصيات الغربية في النّص الرّوائي قد قدّمت للقارئ **تعدّدية ثقافية** تعكس اختلاف الآخر عن الأنا العربي من حيث العادات والتقاليد (الأكل، اللباس، التعاملات...) ومن حيث الفكر والثقافة (نوعية التعليم وطريقة التفكير)، إلاّ أنها في الوقت

نفسه قدّمت لنا أنساقا من الخطابات الاستشراقية الغربية التي تكرّس الفكر الكولونيالي على لسان تلك الشّخصيات، وهو ما جعل الأنا في صراع مستمر على مستوى الهوية سببه **الآخر** الذي يسعى بشكل مستمر إلى إبراز تفوّقه الحضاري في مقابل تخلف الأنا العربي، وإلى فرض نموذجه الفكري والثّقافي بالقوة. وهكذا خلّف الاستعمار الغربي للشّرق انزياحاً ذهنياً ظهرت معالمه على ملامح الهويتين: الهوية الغربية المسجّلة بأقلام غربيّة استشراقية، والهوية العربية المغلوبة المسوّقة بأقلام استشراقية -غربية أيضاً- وهذا الانزياح يمكن إدراجه تحت مسمى الخطاب الكولونيالي.

يأخذ الخطاب الرّوائي موقعاً خاصاً في تشييد الحقيقة الكونية عندما يسرِدُ لنا الأنا أو الآخر، فالرّوائي يشتغل وفق رؤية شاملة يتغلّب فيها الجانب التخييلي على الجانب الواقعي فيقوده ذلك إلى **التّمثيل السّردي** بدل **السّرد الواقعي**، في حين يستند المؤرّخ على منظومة القيم والأفكار اليقينية ذات البعد القصدي والنّفعي فيقوده ذلك إلى **السّرد الواقعي**.

ولمّا كانت الرّواية التّاريخية أو التي تستند إلى المرجعيّة التاريخية ذلك الجنس من الكتابة الرّوائية الذي ينبغي أن يجمع بين فنية المتخيّل وواقعية التّاريخ، تحوّلت صورة الكتابة الرّوائية إلى كون متخيّل داخل روح تاريخية، الهدف منها محاولة وصف الرّاهن أو الحاضر المربك الذي تلتقي فيه الأنا بالآخر ويدخلان ضمن علاقات متشابكة ومعقّدة في فضاء لا تتّضح معالمه إلاّ من خلال الماضي التّاريخي.

4.قضايا" النّسق" و"المسكوت عنه" في خطابات الآخر ضمن النّصوص الرّوائية ذات المرجعية التّاريخيّة:

يثبتُ البحث التّاريخي ارتباط الخطاب الرّوائي بحمولته الثّقافية والتّاريخية والإيديولوجيّة من زاوية انتمائه إلى فن "القصص" الذي يُعتبَرُ أساساً في حوار الحضارات وتلاحقها وتقاربها وتبادُل الاستفادة في مجالات الفن والحياة عموماً، ذلك أن "القصص" ظاهرة إنسانية تضرب جذورها في التاريخ لتتواجد مع علاقة الإنسان بالحياة وبالآخر المختلف عنه.

من هنا ارتبطت الرواية والقصة عموماً بالإنسان وممارساته العقائدية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، فصارت لَهُ حافظة وتاريخ يشاركه مع الآخرين من مختلف الأمم والحضارات.

وعليه، يبرزُ المنهج الثّقافي و كذا الدّراسات الثّقافية والمقارنة لنتجاوز الطرح الجمالي في مقاربة النّص إلى **النّقد الثقافي** «الذي يتجاوز النقد الأدبي في بحثه عن المخبُوءِ في ثنايا الخطابِ الرّوائي والمسكوت عنه، وفي نقده للأنساق المضمرة التي ينطوي عليها الخطاب الثّقافي بكل تجلّياته. مستخدماً منهج التّحليل القائم على المعطيات النّظرية والمنهجية في السوسيولوجيا والتّاريخ والسّياسة من دون أن يتخلّى عن مناهج التّحليل الأدبي النّقدي. وهو النّقد الذي ينفتح إلى ما هو غير جمالي، فلا يؤطر فعله تحت إطار تصنيفات النّص الجمالي، ويستفيد من مناهج التّحليل المعرفيّة».[20]

وبارتكازه على حقول معرفية مختلفة، يسمح النّقد الثقافي بكشف حركة النسق بوصفه مضمراً يتحرّك ضمن الخطاب على الضّد مع المعلن الواعي، وتكمن أهميّة البحث عن المضمر والمسكوت عنه في الرّواية الحضارية في كونه يساهم في إعطاء فكرة صحيحة عن الذّات والآخر من خلال البحث عمّا لا يقال بصورة علنية ضمن خطابات الآخر ويضمره لغايات إيديولوجيّة ثقافية ولكنّه في الوقت نفسه يشكل جزءاً هامّا من هوّيته الثّقافية.

ومن جهة أخرى، فإن أهمية الدّراسة الثقافية للنّص ضمن النّقد الثقافي تبرز من حقيقة أن الثّقافة تُعينُ على تشكيل وتنميط التّاريخ، و« أفضل ما تفعله الدّراسات الثقافية هو وقوفُها على عمليات إنتاج الثقافة وتوزيعها واستهلاكها، وهذا يستحضِرُ نظرية الهيمنة التي طرحها **غرامشي**، والتي يؤكّدُ فيها أنّ السّيطرة لا تتمُ بسبب قوّة المسيطِر فحسب، ولكنّها أيضاً تتمكّنُ مِنّا بسبب قدرتها على جعلنا نقبل بها ونسلّمُ بوجاهتها لذلك وسّعت الدراسات الثقافية المجال ليشمل العرق والجنس والجنوسة والدّلالة والإمتاع » [21]

إنّ الأنماط التي يستقرِؤها النّقد الثّقافي في خطابات الآخر تكشف نموذجاً عن الفعل المهيمن الذي يسيطر على ذهن المتلقي ويفرضُ نمطاً ثقافياً معيّناً يعمل التّحليل الثقافي على كشفه وفضحه أمام المتلقي، حتى لا يشارك في شيوع هذه الأنساق دون أن يدري، من خلال أدواته التي تقوم على التّأويل وفك شفرة الخطاب الرّمزي بالإفادة من

دراسة الخلفية التّاريخية ومختلف ما يفرزه السّياق من معطيات تعين على القراءة الثّقافية للنص.

ارتبط "المسكوت عنه" في خطابات الآخر بخطاب الهيمنة الذي لطالما عبّر عن تفوّق الإنسان الغربي وتحضره مقابل تخلف الإنسان الشرقي وبربريته، وعلى عمق الهوّة الحضارية والفكرية بين العالمين الغربي والشرقي، الأمر الذي يبرر دواعي استعمار الشرق العربي في غالب الأحيان. وضمن النّصوص السّردية الرّوائية نقلت لنا خطابات الآخر نموذجاً نمطياً عن الآخر الغربي المنفتح والمتسامح دينياً مقابل عصبية وتطرف الأنا العربي، وسعت إلى تكريس هذا التصوّر في ذهن المتلقي لتحقيق نظرية الهيمنة.

وفي مقابل هذا الطّرح يجد المتتبع للممارسات الرّوائية العربيّة والمحلّل لموقع وحقيقة المسكوت عنه في خطابات الأنا من خلال تفسير وقراءة مساحة الفضاءات البيض والمغيّبة في الخطاب السّردي أن الأنا يرتبط « بمجموعة من عوامل القمع والمصادرة والكبت الدّاخلية والخارجية الناجمة عن عوامل القهر السياسي الخارجي أو عوامل القمع الاجتماعي والسيكولوجي والجنسي التي تتعرّض لها الشخصيات الروائية داخل بنية المجتمع العربي الحديث » [22] .

ولعلّ انعدام فضاءات الحرية في المجتمعات العربية هو ما جعل خطابات الشخصيات الرّوائية تبدو ملغّمة بما لا يمكنها البوح به بشكل علني في واقعها المتخيّل مثلما هي الحال في الواقع المعيش. لذلك جاءت الرواية العربيّة **الديالوجيّة** لتساهم في تصوير الواقع الإيديولوجي والثّقافي من خلال نقل الرّوائي لمجموع التّصوّرات والرؤى التي تمثلها الشخوص الروائية بصورة مكثفة يتم من خلالها تقديم جميع الرؤى على قدر من المساواة.

وإن اختلفت الحمولات الإيديولوجية التي يضمرها خطاب الآخر عن خطاب الأنا، والغايات التي يرومها الرّوائي من وراء هذه الأنساق المضمرة، يبقى المسكوت عنه في أي خطاب سواءٌ أكان للأنا أم للآخر مظهراً من مظاهر وجود صراع خفيٍّ بينهما مع اختلاف هذا الآخر بحسب فلسفة الرّواية وموضوعها.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى يمكن أن نستنتج أن وجود الأنساق المضمرة دليل على قدر الحريّة التي تتمتّع بها الشخصيات الرّوائية داخل الخطاب الرّوائي، كما أنّها تنقل

لنا صورة عن السّياق الثّقافي والتّاريخي الذي يؤطر النّص. ولعلّ مفرزات السّياق هي المسؤولة عن قدر الحريّة الذي تتمتع به الشّخصيات، لذلك عكف النّقد الثّقافي على إعادة الاعتبار للسّياق الثّقافي للنّص وللخلفية التآريخية.

يلاحظ المتتبّع لمسار التّحوّلات التي شهِدتها الرّواية العربية عامّة والجزائرية منها بشكل خاص وجود توجّه عام من قبل جيل من الرّوائيين الشّباب إلى تناول مواضيع وقضايا من صميم اهتمامات السرد الثقافي، ترتكز على حقول معرفية مختلفة، وتوظّف فنونا وأجناسا أدبية تنصهر معا لتشكّل البنية النّصية والثّقافية لنصوص روائية تعدّ فضاءً مناسبا لبروز نوع جديد من الدّراسات النقدية والمقارنة، يسمح فيها النّقد الثّقافي بكشف حركة النّسق بوصفه مضمراً يتحرك ضمن الخطاب على الضّد مع المعلن الواعي.

سعت الرّواية الجزائرية إذاً إلى مواكبة ما استجد من مفاهيم وقضايا معاصرة، متّخذة من **السّرد الثّقافي** نمطا جديدا في الكتابة تستطيع من خلاله التّعبير عن الرّاهن الجزائري بما فيه من قضايا ثقافية واجتماعية شائكة هي وليدة عصر "ما بعد كولونيالي" عرف انفتاحا كبيرا على الحضارات والثّقافات التي راحت تتحاور فيما بينها مما سمح بخلق فضاءات للهجنة داخل المجتمعات. ولعلّ من أهم النّصوص السّردية الجزائرية التي عبرّت عن ذلك التّحول الذي شهِدته الكتابة الرّوائية الجزائرية، ما كتبه "**واسيني الأعرج** "و"**عمارة لخوص**" و"**بشير مفتي**" و"**ياسمينة صالح**" و"**الحبيب السّايح**". الّذين تناولوا قضايا هي من صميم اهتمامات السّرديات الثّقافية التي توظّف حقولا معرفيّة شتّى وتمزج غالبا بين المعطى الثّقافي والاجتماعي الرّاهن والمرجعيّة التّاريخية، فتتناول قضايا جديدة تتمثّل غالبا في: سرد المنفى وقضايا الذّاكرة و الهويّة والهجنة والسّيرة الذاتية وسلطة الأنساق وسرد الآخر المختلف وتمثّلاته.

لقد جاءت نصوص روائية مثل "**ذاكرة الماء**" **لواسيني الأعرج**، و"**الجنازة**" **لرشيد بوجدرة**، و"**الأعظم**" **لإبراهيم سعدي**، و"**متاهات ليل الفتنة**" **لأحميدة العياشي**، و"**القاهرة الصغيرة**" **لعمارة لخوص**، و"**إرهابيس**" **لعز الدين ميهوبي** وغيرها مثقلة بأنساق وتمثّلات مختلفة للآخر والدّين والتّاريخ والسّياسة والمثقف والعنف وغيرها، عبرت معظم هذه الأعمال عن الواقع السياسي والثقافي الذي عاشته الجزائر في فترة تاريخيّة حرجة هي

فترة التسعينات وما شهدته من عنف وصراع، وهي بذلك لم تستطع التّحرر من سلطة الأنساق الثقافية التي هيمنت على الكتابة الرّوائية الجزائرية فترة التسعينات والتي عبرت في معظمها عن فكرة الصراع مع الآخر الذي تحول من آخر خارجي إلى آخر داخلي خلق الصراع معه أزمة هوية حادة عاشتها الذات الجزائرية.

وبقراءة تحليلية بسيطة نجد أنّ توجّه النّصوص الرّوائية الجزائرية في السنوات الأخيرة إلى الدّمج بين الخيالي والوثائقي، الماضي والحاضر، المعقول واللاّمعقول، المتخيّل والتّاريخي هو مظهر جديد من مظاهر عملية تاريخية وفنية شاملة تتّسم بالتّنوع والخصوصية، ضمن سباق مع الزّمن للارتقاء بمستوى الإبداع تجاوزاً للذّات وتجاوزاً لهيمنة "الآخر"، وتأكيداً لهوية ثقافية ولخصوصية متأصّلة، وربطاً بين الماضي والحاضر.

ومن أجل الوصول إلى هذه الخصوصيّة التي تتحدّى ثقافة **المركز الغربية** وتهتم بإبراز الفكر **الهامشي** المصغر والمسكوت عنه في ثقافة المركز، سعت النّصوص السردية العربية والجزائرية -رغبة منها في كسر هيمنة النّسق- إلى الاحتجاج ضدَّ البُنى والخطابات الثقافية والأيدلوجية والسياسية "للآخر"، الضّاغطة على حريّة الأنا في المجتمع العربي المعاصر، وتجاوزاً لفكرة قابلة الأنا العربي/الشرقي للهيمنة. بهذا الطرّح الجديد وهذا الانسلاخ من **سلطة النّسق وهيمنة خطاب الآخر** تتحرّرُ الكتابة السّردية من سكونيّة "الوعي القائم" الجاهز إلى دينامية "الوعي الممكن".

وإذا أردنا أن نبحث عن أهم الأنساق المضمرة في خطابات الآخر في النّصوص السرديّة ذات المرجعية التّاريخية نجدها لا تخرج عن نسق عامٍ كبير تتفرّع عنه عدّة أنساق جزئية هو دلالات الهيمنة التي يحملها الخطاب الاستشراقي الاستعماري الذي يهدف إلى جعل الإنسان الشّرقي/العربي يصدِّق تخلّفه في مقابل تفوّق وتحضر الإنسان الغربي/الرجل الأبيض. هذه المعاني والدّلالات يسعى الخطاب الاستشراقي الصّادر عن الآخر الغربي إلى إحلالها في أذهان الشّرقيين عن شرقهم وعن ذاتهم (الشرق البربري المتوحّش).

وضمن هذا النّسق العام الكبير يظهر نسق ناقض لهذا النّسق العام يختبئُ في تصريحات **الآخر** ضمن الخطاب الرّوائي مثل عبارات الانبهار الغربي بسحر الشّرق وحضارته وأخلاق أهله، إلاّ أنّ هذا الانبهار يبقى مضمراً لأنه يناقض النّسق الثّقافي العام الصّادر عن

جهود المؤسسات الاستشراقية والفكر الاستشراقي الكولونيالي بشكل عام الذي استمر لسنوات ليست بقليلة.

5.خاتمة:

بناءً على ما تقدّم، ومن خلال ما قدّمناه من تحليل لأهم الإشكالات والقضايا المتعلّقة بسرد الآخر في النّصوص الرّوائيّة ذات المرجعيّة التّاريخية، توصّلت دراستنا هذه إلى جملة من النّتائج نذكر منها:

1- بالنّظر إلى العلاقات الثّقافية، الحضارية والتّاريخية المعقدة التي تجمع الأنا بالآخر، كان التقاؤهما سردياً مسرحاً للصّراع ومحاولة "الآخر" تكريس مبدأ التّفاضل الذي يمنح الأفضلية لحضارته الغربية ويقصي حضارة الأنا التي يسمها بالتّخلّف تحت وطأة خطاب استشراقي كولونيالي حفظه ونشأ عليه وتغلغل في روحه. وأمام هذا التعّالي الغربي للآخر قدمت لنا النّصوص الرّوائية الأنا العربي بشخصيته المهزوزة وهويته المضطربة. وبرغم استعارة التاريخ لتقديم قراءة موضوعية عن الآخر لم يستطع الرّوائي العربي التّخلص من إكراهات التّاريخ وجعلِ النّص الرّوائي التاريخي مساحة للالتقاء بدل الصّراع، فدخل بذلك في كتابة نمطية جديدة لم يخرج الآخر فيها عن كونه المستعمر الكولونيالي، الذي يسعى إلى فرض وجهة نظره وفكره وثقافته بالقوة تكريساً للنّسق الاستعماري. فلم تقدّم إذاً الأعمال الرّوائية التّاريخية تعدّدية ثقافية ودينية خالية من الصّراع، لأنّ التاّريخ أكدّ أن الآخر قد أقام حضارته بالانفتاح على الحضارات المحيطة (الحضارة العربية الإسلامية) وتدميرها ونهبها ليحتفظ لنفسه بالصدارة في كل شيء.

2- يرتبط التّاريخ بإثبات الهوية والوجود بالنسبة للذات الكاتبة "الأنا"، كما ترتبط الكتابة عن الآخر أو سرده في الأعمال الرّوائية بالإيديولوجيا وبصيرورة التاريخ معاً، ذلك أنّ علاقة الرّواية بالإيديولوجيا تمتد جذورها الأولى إلى نشأة النّص الرّوائي وارتباطه بالواقع الاجتماعي، وبصيرورة التاريخ واعتباره خطاباً أدبياً جمالياً، كما أنّه حامل لصور ومفاهيم وتطلّعات الفرد والمجتمع، والواضح أنّه يكشف رؤية الأديب نحو العالم والتاريخ، ونحو الآخر.

3- إنّ ارتباط الخطاب الرّوائي بالإيديولوجيا هو دليل طغيان النّزعة الذاتية على السّرد الرّوائي ودليل وقوع الرّوائي أسير منطقه ورؤيته الخاصة للعالم وللتّاريخ وللآخر. وعلى مستوى اللّغة السّردية سيكون الدّارس لهذا النوّع من النّصوص السّردية أمام معضلة تفسيره وفك شفراته، فالسّارد غالباً ما يحاول -إذا تعلّق الأمر بالتاريخ وبالآخر- أن يكون موضوعياً يخفي رسالته الفكرية والإيديولوجية خلف أساليب وتراكيب وأنماط تشكِّلُ شبكة محكمة الإغلاق يتطلّبُ فكها التسلّحُ بأدوات المقارنة الثّقافيّة والتحليل والتفكيك وإعادة البناء، من أجل الوصول إلى مقاربة افتراضية للخطاب الأدبي (الرّوائي) الذي يقوم هنا على نظام محدّد من المفاهيم والشّفرات تشكّل المستوى النّسقي والمضمر أو المسكوت عنه في الخطاب السّردي.كل هذا الغموض والتّشفير حتى لا يُتّهَم الرّوائي بالعنصرية أو بالتحيّز للأنا على حساب الآخر أو بمغالطة التّاريخ وتغيير وقائعه أو بالمغالاة في تقديس الذّات ورفض الآخر وتشويه صورته.

6. الهوامش:

[1]- حنّون، عبد المجيد،(1986)،صورة الفرنسي في الرّواية المغربيّة، ط1، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص81.

[2]- المرجع نفسه، ص.80.

[3]- سطاويسي، رمضان، غانم، محمد،(1996)، فلسفة هيجل الجمالية، ط2، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان.ص.209.

[4]- المرجع نفسه، ص.209.

[5]- درّاج، فيصل. (2004)،الرّواية وتأويل التاريخ، نظرية الرواية والرواية العربية،ط1، المركز الثقافي العربي، لمغرب/لبنان، ص.29.

[6]– بن دحمان، عبد الرزاق،(2013)،الرؤية التاريخية في الرواية الجزائرية، روايات الطاهر وطار أنموذجاً، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم. اختصاص، النقد الأدبي الحديث، جامعة الحاج لخضر باتنة، الجزائر، ص.20.

[7]- محفوظ، عبد اللّطيف،(2006)، آليات إنتاج النص الروائي، ط1، منشورات القلم المغربي، المغرب، ص.14.

[8]- المرجع نفسه، ص.14.

[9]– الأعرج، واسيني ، (2005)،الرّواية التّاريخية.أوهام الحقيقة، دار الكتب القطرية، قطر، ص.11.

[10]- الشمالي، نضال،(2006)،الرواية والتاريخ، بحث في مستويات الخطاب في الرواية التاريخية العربية. ط1 ، عالم الكتب الحديث، الأردن، ص.127.

[11]- الأعرج، واسيني، المرجع السابق، ص.10.

[12]- المرجع نفسه، ص.10.

[13]– لبيب، الطاهر،(1999)، صورة الآخر العربي ناظراً ومنظوراً إليه، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ص.34

[14]- ميلود،حكيم،(2003)،"الحقيقة والغيرية في الفكر الصّوفي، نحو نزعة إنسيّة مختلفة"، مجلّة حوليّات التراث، الجزائر،ع10، الصفحة، 148.

[15]- سعيد، محمّد السّيد،(2007)،خطابات عربيّة وغربيّة في حوار الحضارات.،ط2،دار السّلام،مصر، ص.235

[16]- هنتش، تيري،تر: الغانمي، سعيد،(2003)،الشّرق المتخيّل، رؤية الغرب إلى الشرق المتوسطي،المركز الثقافي العربي، لبنان، ص.417.

[17]- هنتنغتون، صموئيل،تر: الشّايب، طلعت،(1999)، صدام الحضارات،ط2، دار سطور للنّشر، العراق، ص.71.

[18]- هنتش، المرجع السّابق، ص.481

[19]- شفيق، منير،(1991)، الإسلام في معركة الحضارة، ط1. دار البراق للنشر، لبنان،ص. 123.

[20]– الغذامي، عبد الله،(2000)،النقد الثقافي، قراءة في الأنساق العربية الثّقافية، ط1 ،المركز الثقافي العربي، لبنان،ص.52.

[21]- المرجع نفسه، ص.18.

[22]– ثامر، فاضل،(2000)،المقموع والمسكوت عنه في السّرد العربي،ط1، دار المدى للإعلام والثقافة والفنون، سوريا،ص.07.

7. قائمة المصادر والمراجع:

1- الغذامي، عبد الله،(2000)،النقد الثقافي، قراءة في الأنساق العربية الثّقافية، ط1 ،المركز الثقافي العربي، لبنان.

2- ثامر، فاضل،(2000)،المقموع والمسكوت عنه في السّرد العربي،ط1، دار المدى للإعلام والثقافة والفنون، سوريا.

3- شفيق، منير،(1991)، الإسلام في معركة الحضارة، ط1. دار البراق للنشر، لبنان.

4- سعيد، محمّد السّيد،(2007)،خطابات عربيّة وغربيّة في حوار الحضارات.،ط2،دار السّلام،مصر.

5- هنتنغتون، صموئيل،تر: الشّايب، طلعت،(1999)، صدام الحضارات،ط2، دار سطور للنّشر، العراق.

6– الأعرج، واسيني ، (2005)،الرّواية التّاريخية.أوهام الحقيقة، دار الكتب القطرية، قطر.

7- الشمالي، نضال،(2006)،الرواية والتاريخ، بحث في مستويات الخطاب في الرواية التاريخية العربية. ط1 ، عالم الكتب الحديث، الأردن.

8– بن دحمان، عبد الرزاق،(2013)،الرؤية التاريخية في الرواية الجزائرية، روايات الطاهر وطار أنموذجاً، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم. اختصاص، النقد الأدبي الحديث، جامعة الحاج لخضر باتنة، الجزائر.

9- حنّون، عبد المجيد،(1986)،صورة الفرنسي في الرّواية المغربيّة، ط1، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.

10- درّاج، فيصل. (2004)،الرّواية وتأويل التاريخ، نظرية الرواية والرواية العربية،ط1، المركز الثقافي العربي، لمغرب/لبنان

11- سطاويسي، رمضان، غانم، محمد،(1996)، فلسفة هيجل الجمالية، ط2، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان.

12– لبيب، الطاهر،(1999)، صورة الآخر العربي ناظراً ومنظوراً إليه، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان.

13- محفوظ، عبد اللّطيف،(2006)، آليات إنتاج النص الروائي، ط1، منشورات القلم المغربي، المغرب.

14- ميلود،حكيم،(2003)،"الحقيقة والغيرية في الفكر الصّوفي، نحو نزعة إنسيّة مختلفة"، مجلّة حوليّات التراث، الجزائر،ع10

15- هنتش، تيري،تر: الغانمي، سعيد،(2003)،الشّرق المتخيّل، رؤية الغرب إلى الشرق المتوسطي،المركز الثقافي العربي، لبنان.